عبرٌ ودلالات

من سورة يوسف

إعداد

د. عبد الله بن علي بصفر

عبرٌ ودلالات

من سورة يوسف

إعداد

د. عبد الله بن علي بصفر

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بصفر ، عبدالله بن علي
عبر و دلالات من سورة يوسف. / عبدالله بن علي بصفر .- جدة ، ١٤٢٧هـ

٦٥ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك: ٣-١٧٥-٥٢-٩٩٦٠

١- قصص القرآن ٢- القرآن - سورة يوسف أ.العنوان
ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٧/٣٦١

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٣٦١
ردمك: ٣-١٧٥-٥٢-٩٩٦٠

السعودية - جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي
هاتف وفاكس : ٦٨٣٨٠٥١ - ص ب : ٤٠٣٧٤ - الرمز البريد : ٢١٤٩٩

الطَّبعَـــةُ الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

ⓒ الهيئة العالمية لتحفيظ القران الكريم ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بصفر ، عبدالله بن علي
عبر و دلالات من سورة يوسف. / عبدالله بن علي بصفر .- جدة ، ١٤٢٧هـ

٦٥ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك: ٣-١٧٥-٥٢-٩٩٦٠

١- قصص القرآن ٢- القرآن - سورة يوسف أ.العنوان
ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٧/٣٦١

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٣٦١
ردمك: ٣-١٧٥-٥٢-٩٩٦٠

السعودية - جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي
هاتف وفاكس: ٦٨٣٨٠٥١ - ص.ب: ٤٠٣٧٤ - الرمز البريد: ٢١٤٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،، وبعد :

فاخترت ضمن خطب جامع منصور الشعيبي إلقاء الضوء والتأمل في سورة يوسف عليه السلام ، الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم عليهم السلام ؛ أولاً لما فيها من العبر العظيمة والدلالات الكبيرة من أن العاقبة للمتقين كما قال تعالى في هذه السورة : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] ، وهذا درس مهم لكل مؤمن لأن الحياة من طبيعتها التنغيص والمشاكل والهموم ، وكما جاء في الأثر : (ما قرأها محزون إلا صرف الله حزنه) وخاصة الدعاة إلى الله عز وجل الذين يقومون بهذه المهمة العظيمة ؛ مهمة الأنبياء والمرسلين ، ويتعرضون لما يتعرضون له من تعب ونكد ، فلا بد للمؤمن من الصبر ، والصبر كما قال عليه الصلاة والسلام : (الصبر ضياء)[2]، وكما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

---

(١) يوسف : ٩٠ .

(٢) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً .

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ فلعل هذه التأملات تعين المؤمن على التدرب على الصبر ، ولا شك أنه لا يمكن لمسلم أن يقرأها إلا ويبكي ، وهذا البكاء يولد التأثر ، وهـــذا التأثر يأتي بالتغيير ، والذي به تتجدد الحياة ، وبهذا التجدد يواصل المؤمن سيره في هذه الحياة من نجاح إلى نجاح ، ومع هذا النجاح يتحقق الفلاح والهداية والصلاح الذي يريده الله سبحانه وتعالى لخير الإنسان على وجه هذه الأرض .

نسأل الله تعالى أن يحقق هذه الفوائد عند التأمل والتدبر في هـــذه الـــسورة العظيمة ، والقصة الكريمة .

وكتبه :

د. عبد الله بن علي بصفر

تمهيد

أما بعد فيا أيها الأخوة الكرام ويا أحباب رسول الله ﷺ سنتحدث بإذن الله تبارك وتعالى عن وقفات مع سورة يوسف عليه السلام ، نستلهم منها دروساً وعبراً ودلالات ، نستعين بها في مواجهة هذه الحياة المليئة بالمنغصات والمكدرات.

هذا هو النبي الكريم ، ابن النبي ، ابن النبي ، ابن النبي ، كما قال ذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : (الكريمُ ، ابنُ الكريمِ ، ابنِ الكريم ، ابنِ الكريم ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم عليهم السلام)[1].

وسورة يوسف سورة عظيمة ، وسورة كريمة ، وهي مكية نزلت على النبي ﷺ في مكة ، وجاء أيضاً أنها نزلت عليه في عام الحزن الذي توفيت فيه خديجة رضي الله عنها ، وتوفي فيه عم النبي الذي كان يدافع عنه ويحامي عنه ؛ فَسُمِّي ذلك العام بعام الحزن ، فنزلت هذه السورة بلسماً شافياً ، وتطميناً وتأنيساً لرسول الله ﷺ ، وتذكيره بالأنبياء السابقين ، وما نزل بهم من البلاء والمحن ، ولذلك كان عطاء بن رباح ــ وهو أحد علماء التابعين وتلميذ عبد الله بن عباس رضي الله عنه ــ يقول : ما استمع أحد إلى سورة يوسف إلا استراح وخرج مابه من هم ومن غم .

---

(١) رواه البخاري (٣٣٨٢).

فهي مؤنسة لمن كان في كرب فقرأها فرج الله عنه كربه، ونَفَّسَ عنه ذلك الهم، وصرف عنه ذلك الغم ، وعلم وتيقن أن بعد العسر يسراً ، وأن الفرج مع الصبر ، وأن النصر مع الصبر .

سبب نزول السورة :

ولقد جاء في بيان سببها : أن نفراً من اليهود أرسلوا إلى مشركي مكة ليمتحنوا رسول الله ﷺ ، فقالوا للمشركين : سلوه عن نبي من أنبياء الله خرج من أرض الشام إلى أرض مصر ؟ سلوه عنه وعن أخباره ؟ فلما سأله أهل مكة ، أنزل الله تبارك وتعالى عليه هذه القصة كاملةً غير مجزأة ، مع أن هناك قصصاً كثيرةً نزلت في القرآن مجزأةً جزء منها هنا وجزء منها هناك ولكن هذه السورة نزلت كاملةً مجملةً في بيانها وتفصيلها وذكر الإمام القرطبي أن في ذلك حجة ودليلاً على أن الله تبارك وتعالى تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن مفرقاً أو مجتمعاً فلم يأتوا به لا هكذا ولا هكذا [1].

وأيضاً جاء في سبب نزولها : أن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم وهم في مكة قالوا لرسول الله ﷺ بعدما نزل عليهم شيء كثير من القرآن ، قالوا : يا رسول الله ! لو قصصت علينا ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[2].

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» (٩/ ٧٩ ، ٨٠) ط. دار الكتب العلمية. وهو هُنا بتصرف منه.

(٢) «تفسير القرطبي» (١/ ٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٢٤) ط. ابن حزم.

بدايات السورة :

وتبدأ هذه السورة الكريمة بقوله ﷻ بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾﴿ الٓرۚ ﴾ وقد ذكر العلماء أن هذه الحروف لها معانٍ كثيرة ، ومن أشهرها وأوضحها : أن الله تحدَّى بها العرب الذين كانت لديهم الفصاحة والبلاغة والبيان ، فقال لهم : إن هذا القرآن المعجز مُرَكَّبٌ من هذه الأحرف (ألف ـــ لام ـــ راء) وغيرها من حروفكم ، فلتأتوا بمثله ؛ وهي لغتكم وأنتم سلاطين الأدب واللغة ، والفصاحة والبيان ، فعجزوا ؛ فكان هذا دليلاً على عظمة كتاب الله تبارك وتعالى وتحديه لهم .

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ وتلك اسم إشارة للبعيد للتعظيم ، ولرفع شأن القرآن الكريم ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ لعلكم تعقلون وتفهمون يا معشر العرب ، فلم ينزل القرآن بلغةٍ أخرى فيستعجم عليكم ، فلم تفهموه و لم تعوا معناه ، ولكنه نزل بلغتكم .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ : (وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض وابتديء إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ ،

أي : بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن)[(١)].

أحسن القصص :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ سَمَّى الله هذه السورة أحسن القصص لما احتوته من العجائب ، ولما اشتملت عليه من الكَرْب والفرج ، ومن الفَقْرِ والغِنى ، ومن ذكر العبيد وعامة الناس ، والفقراء والسلاطين ، ومن ذكر أمور الدنيا وأمور الآخرة ، ومن ذكر الخير والشر ، فاشتملت على معانٍ وعبر عظيمة لا غنى للمسلم عنها ، وعن فهمها ، فَسمَّاها الله تبارك وتعالى : أحسن القصص .

﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ لم تكن عارفاً بهذه القصة قبل أن يسألك هؤلاء الناس عنها ، ولكن الله تبارك وتعالى بينها لبني إسرائيل ، وبينها لمشركي مكة ، فكانت كما كانت في كتبهم — في التوراة — بل وأكثر وتفصيلاً ؛ فقد زادها الله تبارك وتعالى بياناً وإيضاحاً ؛ إفحاماً لهم وتعجيزاً.

يوسف ﷺ والرؤيا :

ثم قال ﷻ : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ رأى هذه الرؤيا وقد كان عمره عشر سنوات عليه السلام ، فكانت إيذاناً من الله تبارك وتعالى بظهور كرمه في هذا العبد ، ويوسف عليه السلام هو أخو بنيامين من أم واحدة ، وبقية إخوته العشرة من أمهات مختلفة ، من الإماء

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٢٤).

ومن غير الإماء ، أما أم يوسف عليه السلام فهي رحيل ، وهي آخر من تزوجها يعقوب عليه السلام ، فولدت له يوسف ، ثم ولدت له بنيامين ، وماتت في نفاس بنيامين ، فلذلك تعلق قلب يعقوب بيوسف عليهم السلام أولاً لأنه صغير ، وثانياً لأن أمه قد ماتت ، فتعلق قلبه بهؤلاء الضعاف عليه السلام ، ويقال إن الإنسان إنما يتعلق قلبه بالصغار من ولده أكثر من غيرهم ؛ كما قالت أم الحسن : ثلاث من الصغار أو من الأطفال يتعلق القلب بهن : الأول : الطفل الصغير حتى يكبر ، والثاني : المسافر حتى يعود ، والثالث : المريض حتى يشفى ، فالأب إنما يَحِنُّ ويميل قلبه لأبنائه إذا كانوا من هؤلاء الثلاثة .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ أحد عشر كوكباً : إخوته وكانوا أحدَ عَشَرَ رجلاً ، والشمس والقمر : أبوه وأمه ، كما فسرت هذه القصة في آخرها .

قال ابن عباس وقتادة : الكواكب إخوته ، والشمس أمه ، والقمر أبوه .

وقال قتادة أيضاً : الشمس خالته ، لأن أمه كانت قد ماتت ، وكانت خالته تحت أبيه [1].

كلُّ ذي نعمةٍ محسود :

ويوسف عليه السلام ــ كما ذكرنا ــ كان في سنٍ صغيرةٍ ، ولكن الذي آتاه الله من العلم والحكمة ، عرف أن لهذا الطفل شأناً ، وأن لهذا الفتى الصغير أمراً

(١) «تفسير القرطبي» (٩/ ٨١).

عظيماً فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ ﴾ و (الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)[1]؛ الرؤيا الصالحة كما كانت لنبينا ﷺ ، ولم يبق من آثار النبوة إلى اليوم إلا الرؤيا الصالحة ، فهي من آثار النبوة الباقية إلى اليوم وإلى يوم القيامة .

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ ﴾ عرف حسدهم ، وعرف منافستهم لهذا الغلام الذي سيمتاز عليهم مع صغره ، ولذا أمره بألا يُظهر أمر رؤياه لإخوته لأنها نعمةٌ عظيمة يحسدونه عليها ؛ ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ وهذا من إلهام الله ﷻ ليعقوب عليه السلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ هذا من كلام يعقوب يواصل حديثه مع ولده الصغير ، ويبشِّره بالنبوة ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يصطفيك ويختارك ؛ فيبشره بأنه سيكون نبياً في مستقبل أيامه ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ هذه الأولى ، ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾ هذه الثانية ، فيكون عالماً بتفسير الرؤيا ، والثالثة ﴿ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾ بالملك والمال ، والعز والسلطان ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ ﴾ يعني بالنبوة من الله تبارك وتعالى ، فأكرمه الله ﷻ بالنبوة ، وبتأويل الأحلام ، وبالملك والسلطان عليه السلام ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عليم بمن يختار لهذه النبوة ، ومن يصطفي ومن يجتبي ، ولذلك ما كان أخوة يوسف أنبياء ، وإنما يوسف عليه السلام فقط هو النبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي ، أما إخوانه فما كانوا أنبياء ، ولا مرسلين لأن الله ﷻ اصطفى يوسف عليه السلام من بينهم .

---

(١) رواه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً.

غَيرةُ أخوة يوسف ﷺ ومَكْرُهم :

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ ليست آية ؛ بل آيـــات وعبر وعظات ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ يوسف وبنيامين ، لما يروا من اهتمام والدهم بهما ، وعنايته بهما ، وكيف لا يعتني بهما وقد فقـــدا أمهما وهما صغيران[1] ؟! ، وقد عرف أن أحدهما وهو يوسف عليه السلام سيكون نبياً ، وسيكون له شأنٌ ؟! فكيف لا يعتني به ؟! ، وكيف لا يهتم ؟! ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ ونحن أقوى وأمنع وأنفع إلى أبينا من هذا الغلام الصغير ، والعصابة التي تتعـــصب بعضها مع بعض فتكون قوة متناصرة ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : إن أبانا لفي خطأ بهذا التفضيل ، وليس معنى: ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هنا بمعنى الضلال في الدين ، وإلا لكان هذا كفراً منهم ، لأن يعقوب عليه السلام نبي من أنبياء الله تبارك وتعالى .

ثم قالوا : ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ قَسَتْ قلوبهم إلى درجة أن يقتلوا أخاهم ، بلغ الحقد والحسد بهم مَبلغاً عظيماً ، وهكذا يكون الحسد والعيـــاذ بـــالله ﷻ ، إذا تسلط على الإنسان أعمى بصره وبصيرته ، فيجمد قلبه ويقسو ويشتد حـــتى لا يكاد يرى الطريق السوي أبداً ، ولأجل هذا جاءت شريعة الإسلام بالعدل بـــين الأولاد ، والمساواة بينهم ، وعدم تمييز بعضهم على بعض ، لا في مظاهر الحـــب ولا في العطاء ، لأن التمييز بينهم يؤجج العداوات والأحقاد ، والغل والحسد .

---

(١) انظر « البداية والنهاية » (١ / ١٩٧) ط. مكتبة المعارف بيروت .

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ ارموه في الصحراء البعيدة حتى يموت ويهلك من الجوع والعطش ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ يتفرغ لكم أبوكم ، ويعتني بكم ، ويهتم بكم ، ويكون أكثر لقائه معكم ، ثم توبوا بعد ذلك !!.

وهذا الذي قاله إخوة يوسف عليه السلام من وساوس الشيطان ؛ يوسوس للإنسان : الآن سافر واعصِ ربك ، ثم إذا رجعت تأتي بعمرة ، وتطيع الله سبحانه وتعالى ، وتستغفر وتتوب !! ، هذا من مكائد الشيطان ، فإن الله تبارك وتعالى هو العليم وحده : هل يتمكن هذا الإنسان من التوبة أم لا ؟! ولو نوى الإنسان التوبة بعد المعصية ؛ هل سيدركها ؟! وهل ضمن أنه بعد ما يذنب يعود سالماً ؟! ويتوب إلى الله تبارك وتعالى ؟! وأن الله سيتقبل توبته تلك ؟! ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1] المؤمن لا يأمن من مكر الله تبارك وتعالى ؛ كما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه : لو أن إحدى قدمي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله .

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهو كبيرهم ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ دَلَّهُم على رأيٍ ألهمه الله تبارك وتعالى إياه ؛ أن لا يقتلوه وأن يلقوه في غيابة الجُب ، والجُبُّ هو البئر ، وغيابةُ الجُبِّ : أي المكان الذي يغيب فيه فلا يراه أحد ، يُرمَى في البئر ، في المكان الذي لا يُرى

(١) الأعراف : ٩٩.

فيه أحد، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: غيابت الجب، أي: قعره على راعوفته؛ وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح؛ وهو الذي يترل ليملي الدلاءَ إذا قَلَّ الماء[1]. ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ تأتي قافلة فتمر فتأخذ هذا الغلام، ويبعدونه عنكم، وتستريحون منه.

وعادوا يحاولون مع أبيهم؛ ويتوددون إليه، حتى يستخرجوا منه يوسف عليه السلام.

مؤامرة للخلاص من يوسف ﷺ:

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ جاءوا بالكلام اللّين الكاذب؛ وهكذا يكون الكذاب والمحتال الذي يأتي إلى الناس فيظهر إليهم أنه طيب، وأنه صادق، وأنه يريد الخير؛ فكذلك يقول هؤلاء: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ أي أننا نريد نصيحته، نريد له الخير ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الرتع: هو كثرة الأكل من الفواكه والأطعمة في البادية وفي البرية ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ وكذبوا على الله، وكذبوا على نبي الله، وأعطوا المواثيق، وخانوا عهد الله وعهد نبيه.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ ما تَعوَّدتُ أن أفارق يوسف، ما تعودت على فراقه فهو معي ليلاً ونهاراً ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ أعطاهم الحجة بلسانه، ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ وأُخِذَ من هذا أن الإنسانَ إنما يُسلَّطُ عليه ما يخافه، ولو أنه لم

---

(١) « البداية والنهاية » (١ / ٢٠١).

يخف غير الله لم يُسلَّط عليه شيءٌ . ويؤخذ منه كذلك : أنه لا ينبغي لأحـــدٍ أن يذكر مخاوفه عند من لا يوثق من محبته ونصحه ، لئلا يستغلها ضده ، ويَنفذ إلى أذاه من خلالها.

وقيل : إنه رأى ذلك في المنام عليه السلام ، رأى يعقوب أن يوسفَ يأكله الذئب ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ بعد هذا الكـــلام أَسرُّوا إلى يوسف عليه السلام بأن يخرج معهم ؛ فطلب يوسف من أبيه أن يسمح لـــه بالخروج مع إخوانه ، فلما ذهبوا به وأخذوه من أبيه ، ووضعوه على أكتافهم ، وهم يكرمونه ويقبلونه ، وأخذ يعقوب ينظر إليهم ، ويرى هذا التكريم ، وهـــذه المحبة ، حتى غابوا عن أنظار يعقوب ؛ وعندها ألقوه علـــى الأرض ، وضـــربوه وشتموه ، فَتعجب يوسف عليه السلام من تغيرهم وتغير أخلاقهم ، كيف كـــانوا ؟! وكيف أصبحوا الآن ؟! وهكذا الحاسد، وهكذا ذو الوجهين !!، وكلما التجـــأ يوسف ﷺ إلى واحد من إخوانه ضربه ، فيلجأ إلى الآخر فيضربه فيلجأ إلى الآخر فيضربه ، وهكذا ؛ فعند ذلك عرف أهم أجمعوا أمراً ، فلما ذهبوا بـــه وأجمعـــوا على أن يجعلوه في غيابة الجب ، وألقوه في وسط البئر وألقوه في الدلو ونزل حتى وصل في آخر البئر على صخرة فجلس عليها ، ولم يترل في الماء ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ نزل عليه جبريل عليه السلام ليطمئنه بأن هذا من امتحان الله ومن ابتلاء الله ، وأن بعد هذا الضيق فرجاً ، وأنك بعد هذا الفرج ستخبرهم بأمرهم هذا ، وخبرهم هذا ، وفعلهم هذا ، وهم لا يشعرون، وما أجمل أن يأتي التطمين من الله تبارك وتعـــالى

وقت المحنة ، كما كان النبي ﷺ في غار ثور لما هاجر عليه الصلاة السلام .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ وقيل إنه كان في عمر (١٢سنة) في ذلك اليوم الذي أُلقي فيه في البئر .

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ بعد المغرب جاءوا في الظلام حتى تكون أدوات الجريمة مختفية وغير واضحة، وغير ظاهرة، وهم ﴿ يَبْكُونَ ﴾ بكاء الكذب ، وليس بكاء الصدق، ولذلك شريح القاضي؛ لما جاءته امرأة تتقاضى عنده، وتشتكي ، وكانت تبكي وتبكي وتبكي، فقال له أحد الجالسين : إنها مظلومة . فقال له شريح : وهؤلاء إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون ، لا أقضي بالبكاء ، ولكن أقضي بالحق والعدل ؛ ولهذا لا ينبغي أن يتسرع المرءُ في الحكم متأثراً بالعواطف ، بل يتأنّى ويسمع من الأطراف كلها ، ويتفحص الأدلة والقرائن ، حتى يتبين له وجه الصواب.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ فأثبتوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين وليسوا صادقين بهذه القولة : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ .

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ ذبحوا شاةً وجعلوا الدم على قميص يوسف ، فلما نظر يعقوب عليه السلام في ذلك القميص ، ولم ير فيه شقاً ! ولم يرى فيه قطعاً أو تمزيقاً !! رآه قميصاً سليماً تعجب !! وقال : ما أحلم هذا الذئب على ابني ؟! يأكل ابني ولا يشق قميصه !! فتعجب عند ذلك وقال لهم : ﴿ بَلْ

سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ وهذا القول قالته السيدة عائشة رضي الله عنها لما اتهموها بالحرام ، اتهموها رضي الله عنها وأرضاها فقالت : لا أقول لكم إلا كما قال يعقوب ﷺ ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ فجاءها الفرج بعد ذلك من الله تبارك وتعالى ، كما جاء الفرج ليوسف ﷺ .

ويؤخذ من هذه الآية أن الكذبَ حبله قصير ، وأن الكذّاب سينكشفُ أمره إن عاجلاً أو آجلاً ، وأن الخائن الماكرَ ضعيفُ العقلِ ، فاسدُ التدبير ؛ وإلا فكيف يُعقل أن يأكل الذئبُ يوسفَ دون أن يمسَّ قميصه بأذى ؟! فلا يقطع منه قطعةً واحدةً ، ولا يمزّقه ولا يشقه !!.

خلاص يوسف ﷺ من البئر :

﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ ﴾ أي قافلة ﴿ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ ﴾ الذي يجلب لهم الماء ﴿ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ ﴾ فلما رأى يوسف هذا الدلو تمسك فيه فخرج من البئر ، فلما رآه ذلك الوارد ﴿ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ ﴾ وفي قراءَة قال (يا بشراي) يا فرحي ﴿ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ ﴾ اعتبروه بضاعة وأخفوه عن أعين الناس ، حتى لا يأتي إنسان من أقاربه فيأخذه .

وهنا نتساءل ، لماذا لم يطلب يوسف ﷺ أن يعود إلى أبيه ؟ ولماذا لم يتكلم بأمر إخوته وأنهم هم الذين ألقوه في البئر ؟ قيل : إنه سكت ، ووافق على أن يباع ويذهب إلى أرضٍ أخرى ، لأنه كان يعلم أنه لو عاد إلى إخوانه لقتلوه ،

فلذلك آثر البيع على القتل[(١)] . ﴿ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ ﴾ باعوه بثمنٍ زهيد ، بعشرين درهماً كما ذكر المفسرون [(٢)] حتى لا يشك أحد في أمرهم ، وحتى يتخلصوا من هذه المسألة ، حتى لا يطالبهم أحد بعد ذلك ، وكانوا فيه من الزاهدين ، وهم لا يعرفون قدره ولا مقداره ، ولا أنه سيكون من أنبياء الله ، ولا أنه سيكون من المصطفين الأخيار .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ ﴾ أي بعد أن باعوه على رجل في مصر ، وهو العزيز ؛ وزير المالية ، أي أن الأموال والأراضي والثمار ، كل ذلك تحت يده ؛ ويسمى عزيزاً فهو الذي اشتراه ، وكان عقيماً ، واسمه إطفير بن روحيب ، وزوجته اسمها زليخا.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ قال أحد المفسرين أن أفرس الناس ثلاثة : أولهم هذا العزيز ؛ تفرَّسَ في يوسف عليه السلام فقال لامرأته : ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ ﴾ ، والثانية : امرأة مَدْينَ التي جاءت مع موسى عليه السلام ، وقالت : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾[(٣)] . والثالث : سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي استخلف عمر رضي الله عنه لعلمه بعدله فكان كما علمه وتفرس فيه وأكثر رضي الله عنه وأرضاه .

---

(١) انظر « تفسير القرطبي » (٩/ ١٠٢).

(٢) قال ذلك ابن مسعود وابن عباس والسدي وقتادة وعطية العوفي ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً. وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهماً. فالله أعلم «البداية والنهاية» (١/ ٢٠٢).

(٣) القصص : ٢٦ .

قـــال: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ أصبح في بيت وزير المالية ، أصبح هو الآمر والناهي ، وهـــو المكـــرَّم والمعزَّز في هذا البيت ، بعد أن أُخرِجَ من البئـــر ، وبعـــد أن نجـــاه الله منـــه ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ ﴾ من تفسير الرؤيا ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

يوسف ﷺ في بيت العزيز :

قال الحق تبارك وتعـــالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بعد أن نجاه الله تبارك وتعالى ، أخرجه من أول المحن ، وهي محنـــة إلقائه في البئر، أخرجه الله تبارك وتعالى من تلك المحنة، وأسكنه كما ذكرنـــا في قصر العزيز ، وهو وزير المال عند فرعون ، فعاش عيشةً هنيةً كلها رغد ، وكلها راحة ، وكلها طمأنينة ورفاهية .

قال ﷻ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾[1] قال المفسرون : أي بلغ (ثماني عـــشرة سنة) أي : تجاوز سن البلوغ ، ووصل إلى سن اكتمال العقل ، وإلى سن اكتمال الجسم ، فاكتمل عقلاً وجسماً . ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ ﴾ آتينـــاه

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (١ / ٢٠٣) : وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشُدّ ، فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحُلُم . وقال سعيد بن جـــبير : ثماني عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقـــال السُدّي : ثلاثون سنة . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحـــسن : أربعون سنة . ويشهد له قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ ا.هـــ.

حكماً ، أي : النبوة . وعلماً ، أي : علم تأويل الأحلام ، مِنَّةً مــن الله تبــارك وتعالى وكرماً ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ الذين أحسنوا فيما بينهم وبــين الله ؛ والإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ أن تعبــد الله ﷻ وأنت تراقبه في كل حركة وفي كل سكنة ، أن تراقب ربك تبارك وتعالى ، وأنت على يقين أن الله ينظر إليك ويراك سبحانه وتعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ كذلك نجزي من أحسن فنجعله من الصالحين ، ونؤتيه من العلم ، ومن الحكمة ، كما آتينا من قبله من المحسنين .

محنة الشهوة والإغراء :

ثم تأتي المحنة الأخرى لسيدنا يوسف عليه السلام ، وهي أشد من المحنة التي قبلــها محنة البئر ، وأشد من المحنة التي بعدها محنة دخوله في السجن ، فهذه المحنة هــي : محنة إغرائه بالفاحشة ، ثم اتهامه بها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ لما اكتمل في جسده وفي عقله ، وظهر جماله عليه السلام في أكمل صورة ، وأتمها ، عند ذلك راودته تلك المرأة ــ زليخا ــ ؛ زوجة العزيز إطفير بن روحيب ، لما رأت من جماله ، ولما رأت من صفاته الحسنة ، ولم تكن على دين ، ولا على إيمــان ، ولا على تربية ، بل نشأت كما ينشأ الكفار والمترفون ، على الفسق والفجــور والعياذ بالله تبارك وتعالى.

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ أحكمت إغلاق الأبواب حتى يتهيأ لها ما تريد ، وحتى يطمئن وتطمئن من أنه لن يدخل عليهما أحد، تريد أن تدخل على قلبه الطمأنينة ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ بمعنى هَلُمَّ وتعال إلى الفحشاء ، والعياذ بالله ﷻ ؛ فما كان من نبي الله تبارك وتعالى ، الذي آتاه الله العلم والحكمة ، إلا أن قال هذه الكلمة العظيمة ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ أول كلمة تفوه بها أمام الشهوات ، وأمام الملذات ، وأمام المغريات .

ولذلك قال ﷺ : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ وذكر منهم ـ: ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ـ فتنتين في آن واحد ـ فقال: إني أخاف الله)[1].

فما كان من نبي الله يوسف عليه السلام ، إلا أن قال : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ ربي : أي : العزيز ؛ فكلمة الرب بمعنى الصاحب ، وبمعنى المربي ، وبمعنى المالك ، فهنا معناها : صاحب نعمتي ، الذي رباني ، واشتراني ، وجعلني أسعى في هذا البيت آمراً وناهياً ومطاعاً في هذا السلطان ، وفي هذا الملك ؛ ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ كيف أخونه فأجمع جنايتين في جنايةٍ واحدة : الخيانة ، ثم الفاحشة والعياذ بالله تبارك وتعالى ، ولذلك كان الزنى بحليلة الجار بعشر زنيات بغيرها والعياذ بالله كما أخبر بذلك النبي ﷺ ؛ لأن جارك يأتمنك ، والصاحب كذلك يأتمنك ، فإذا جاء الجرم منهم كان مضاعفاً عشرة أضعافٍ والعياذ بالله ﷻ .

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١).

قال : ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَۖ ﴾ كيف أقابل الإحسان بالإساءة ؟! ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فالظالم لا يُفلح ، الغادر لا يفلح ، والخائن لا يفلح ، لأن هذا العمل ليس فيه فحش فقط ، بل فيه غدر وخيانة أيضاً .

ثم يقول ﷻ : ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ قال المفسرون : أما قوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ ﴾ فالهم منها بمعنى العزم الأكيد ، فهي لم تكتفِ بأن تطلب منه ، وتراوده ، والمراودة بمعنى : الطلب برفق ولين ، بل انتقلت من الرفق واللين إلى الشدة ، وإلى الهم ، وهو العزم الأكيد ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى التتبع ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾ فأخذ يوسف يجري وهي تجري من ورائه ؛ تأكيد على عزمها وتصميمها على تنفيذ مخططها اللئيم ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴾ لم يُعلِّق على هَمِّها ، وعَلَّق على هم يوسف ، فلما ذكر هم زليخا قال : ﴿ هَمَّتۡ بِهِۦۖ ﴾ ولما ذكر هَمَّ يوسف عليه السلام قال : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴾ قال المفسرون في الآية تقديم وتأخير، أي : لو لم ير برهان ربه لهمّ بها ، كما تقول في كلامك العادي : سقطت لولا أن حملني فلان من الناس ، وهكذا في قوله ﷻ ﴿ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا ﴾ أم موسى عليه السلام لما ذهبت ترضعه عند فرعون ، إن كادت لتبدي به كادت أن تظهر للناس أنها أمه وأنه ابنها ﴿ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا ﴾[1] أي :

---

(١) القصص : ١٠ .

لولا أن ربطنا على قلبها لأبدتْ وكشفت نفسها ، وقالت للناس : هـذا ابـني ، وليس ابن فرعون . وهذه الآية تماماً مثلها ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾.

فما هو برهان ربه الذي رآه ؟ قال المفسرون : برهان ربه أنه رأى يعقوب أباه عليه السلام في صورةٍ أمام عينيه وهو يعض إصبعه ، وقيل : إنه رأى زوجها ؛ زوج زليخا ، وقيل : إنه رأى آيةً مكتوبةً في سقف ذلك البيت من كتاب الله تبـارك وتعالى ، فكان ذلك برهان من الله عز وجل ، وقيل غير ذلك [1].

المهم أنه رأى من الله تبارك وتعالى البرهان والمانع والحجة التي لم تجعله يهم ، ولم تجعله يقع ، وهكذا المؤمن ، وهكذا الصالح ، وهكذا التقي النقي ، حتى لـو فكَّرَ يوماً من الأيام في الوقوع في الفاحشة ، فإن الله تبارك وتعالى يـضيع عليـه الطريق ، ويلهمه طريقاً آخر ؛ ويدله على الخير ، ولا يدله على الـشر سـبحانه وتعالى ، فكيف بنبيٍّ من أنبياء الله تبارك وتعالى .

براءَةُ يوسفَ ﷺ من الهمِّ بالسوءِ :

قال العلماء في هذه الآية : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ : ذكر الله عز وجل في سورة يوسف عشرة أدلة تدل على أنه ماهَمَّ بالحرام ولا وقع فيـه عليـه الصلاة والسلام :

أولها : قوله سبحانه وتعـالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ فكان أول كلمةٍ قالها أن استعاذ بالله عز وجل ، ومن استعاذ بالله أعاذه الله .

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (٤/ ١٨٣٦) ط. ابن حزم .

الدليل الثاني : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ جريه واستباقه بكل ما يملك من القوة في الجري ، دليل على فراره من هذا الذنب ، وليس دليلاً على إقباله عليه .

الدليل الثالث : قوله ﷻ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ فَضَّلَ السجن على الزنا ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

الدليل الرابع : قوله جل وعـــلا : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فالله ﷻ يثني عليه بالنبوة ، ويثني عليه بالعلم ، ويقول : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وأثنى عليه أيضاً في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ وكلمـــة السوء يدخل فيها الهم بالفحشاء ، والعزم على الفحشاء ، وفعل الفحشاء ، فالله ﷻ يقرر في القرآن الكـــريم : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى عـــن إبلـــيس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1] ويوسف من هؤلاء المخلصين كمـــا ذكر الله تعالى.

الدليل الخامس : قوله تبارك وتعـــالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ كما سنبين فيما سيأتي ؛ فشهادة هذا الشاهد دليل على براءته .

الدليل السادس : قوله ﷻ : ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ بعد أن خرج مـــن السجن ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ لـــو

---

(١) ص : ٨٢ – ٨٣.

كان فيه شائبة من فعل الفاحشة ، أو الهم بها ، أو العزم عليها ، أو الموافقة ؛ لما سكتت امرأة العزيز ، ولكنها نَفَتْ عنه التهمة بأكملها .

الدليل السابع : قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ وهذا تأكيد من امرأة العزيز أمام النسوة جميعاً ، على نجاته وبراءته من هذا الجرم.

الدليل الثامن : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

الدليل التاسع : قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فهذا دليل أيضاً على تفضيله السجن ، أي أنهم حتى بعد ما رأوا الآيات على أنها هي الكاذبة ، أرادوا إخفاء هذا الأمر بأن سجنوه عليه السلام .

والدليل العاشر : قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن حتى يُذهِبَ عنه تلك المقالة الشائنة التي نسبوها إليه ؛ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ .

هذه أدلة كثيرة تدل على براءَةِ نبي الله يوسف عليه السلام حتى عن مجرد الهم بالسوء ؛ ويكفي قول الحق تبارك وتعالى كما ذكرنا : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى

لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾ يكفي هذا دليلاً على براءته عليه الصلاة والسلام .

مكر النساءُ وكيدهن :

ثم قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ يعني من الخلف ﴿ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ وَجَدا زوجها ﴿ لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لما رأت زوجها عند الباب ، قلبتِ الحقائقَ فانقلبَ الظالمُ مظلوماً ، والحق باطلاً ، والباطل حقاً ، وانقلبت هي إلى امرأةٍ وديعة عفيفة مظلومة ، وادعتْ على يوسف عليه السلام أنه الظالم المعتدي ﴿ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾ وهكذا يكون المجرم والظالم والمعتدي ، ينسب إلى أهل البراءة ما ليس فيهم، ولذلك عندما سُئل النبي ﷺ في حديث الغيبة: أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال ﷺ : (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) [(١)] . هذا هو البهتان أن تلصق بالإنسان البريء ما ليس فيه ، وهذا أعظم من أن تتكلم على الناس بما هو فيهم ، ولكن من يلصق بالناس التهم التي ليست فيهم والعياذ بالله عز وجل ؛ فهذا من أعظم الذنوب عند الله تبارك وتعالى .

﴿ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عند ذلك ما كان من يوسف عليه السلام إلا أن تكلم ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ ﴾ دافع

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩) .

عن نفسه ، ويجب على الإنسان عندما يتهم بالباطل أن يدافع عن نفسه فقال : ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قال المفسرون : الشاهد طفل صغير في المهد ، ابن خالتها كان موجوداً في القصر ، قال عليه الصلاة والسلام : (تكلم في المهد أربعة ؛ ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم عليه السلام) [1] هؤلاء تكلموا في المهد ؛ فماذا قال هذا الشاهد ؟.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ﴾ أي من الأمام ﴿فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ أي من الخلف ﴿فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دليل غاية في الوضوح والبيان والحجة والبرهان ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ لما رأى القميص مشقوقاً من الخلف، دلالة على هروب يوسف عليه السلام، وعلى أنها كانت تصر على فعل الذنب ، والعياذ بالله عز وجل ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾.

ماذا فعل زوجها العزيز؟! اكتفى بهذا الكلام!! ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ أكتم هذا الكلام ولا تتكلم ، وأنت يا زليخا ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ أي اطلبي المغفرة من زوجك ، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ يعني والعياذ بالله عز وجل قبول للفحشاء، وهكذا المترفون المنغمسون في الفسق والفجور، الذين لا يأبهون

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٢) رقم (٢٨٢٢) ، والحاكم (٢/ ٤٩٦ ، ٤٩٧) ، وأورده الطبري في تفسيره (١٣/ ١٠٦) .

بحرمة، ولا يأبهون بعيب والعياذ بالله ﷻ ، فكل شيء عندهم سواء والعياذ بالله ﷻ ، وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ: (لا يدخل الجنة ديوث) وبيَّن ﷺ أن : (الديوث الذي يقر الخبث في أهله) يرضى بالخبث، فإذا عرف أن زوجته أو ابنته خرجت ورتعت في الحرام، وجدته لا يحرك ذلك فيه ساكناً والعياذ بالله تبارك وتعالى من ذلك.

ثم قال ﷻ: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ انتشر الكلام في المدينة ــ في مصر ــ انتشر القول بين عِلية القوم عندهم ؛ امرأة العزيز أكبر وزير ، تراود فتاها ؛ عبدها وغلامها الكنعاني ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ لما سمعت بانتشار هذا الكلام أعدت مكيدةً أخرى ؛ أرسلت إليهن ، وكنَّ أربعين امرأة ، ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ يجلسن عليه ، ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وقدمت لهن فواكه تحتاج إلى تقطيع بالسكين وقالت ليوسف عليه السلام ــ وهو لا زال باقياً في بيتها ، ولا زال تحت سلطتها وأمرها ــ فقالت ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي : لَمَّا رأينه أعظمنه وأجللنه وهبنه وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم ، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن ، وجعلن يجززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ قال النبي ﷺ في حديث الإسراء والمعراج لما مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال ﷺ : (فإذا هو قد أعطي شطر الحسن) [1] يعني نصفه ، قال مجاهد عن

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٤٥ ، ١٤٧) كتاب الإيمان .

ربيعة: قُسِمَ الحسُنُ نصفين ، فأعطي يوسف وأُمُّهُ سارة نصف الحسن ، والنصف الآخر بين سائر الخلق [(١)].

﴿ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ رفعتِ الحجاب ، ورُفع الحياءُ ، وذهب الخجل ، وإذا بها تتبجح أمام صديقاتها الفاسدات مثلها ، وإذا بها تتبجح بالفحشاء والمنكر والعياذ بالله ﷻ ،كما يفعل المجاهر الذي ستره الله ثم إذا أصبح فضح نفسه !! ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل أمتي مُعافىً إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يُصبح وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان ، عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، فيُصبح يكشف ستر الله عنه) [(٢)] .

فإذا بها تقول : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾ غايةً في التبجح ، وغايةً في ذهاب الحياء والعياذ بالله ﷻ ، ولما رأى يوسف عليه السلام نظرات أولئك النسوة ؛ نظرات الفسق والفجور ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ أصبح جميع النسوة والعياذ بالله ﷻ ينظرن إليه نظرة الريبة ، ونظرة الفحش والفسق والفجور ، فالتجأ إلى ربه ﷻ ، ومن التجأ إلى الله نجا ، ومن اعتصم بحبله فاز ، ومن اعتمد عليه نصره الله تبارك وتعالى .

---

(١) « تفسير الطبري » (١٣/ ١٣٦ ، ١٣٧) ، و« تفسير ابن كثير » (٤/ ١٨٣٩).
(٢) رواه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

ومن الفوائد التي نأخذها من هذه الآيات : أن تساهل الزوج في الغيرة على زوجته قد يُجرِّأها على الخيانة والفجور . فعندما اكتفى العزيز بقولـه لزوجتـه ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ ... ﴾ و لم يزد في تأنيبها على ذلك !! جرَّأها ذلـك إلى أن تبوح للنسوة بعشقها الفاضح ليوسف ﷺ ، وتصميمها على الخيانة والفجور حتى أنها لتقول : ﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.

وهنا قصة واقعية يجدر بنا أن نذكرها ؛ حدثت في بلاد الشام ، وهـي أن شاباً قد أعطاه الله ﷻ الجمال ، وأعطاه الدين والخوف من الله ﷻ ، جاءته امرأة في يومٍ من الأيام ، وقالت له : نريد منك مساعدة ، تحمل معنا شيئاً ؛ فحمـل معها ذلك الشيء ، ولما دخل إلى بيتها أغلقت الباب ، وقالت له : ما دعونـاك لتحمل هذا الشيء ، وإنما دعوناك ــ والعياذ بالله ــ للفسق والفجور ؛ للفاحشة . فأخذ يفكر ويفكر ، فهداه الله تبارك وتعالى ، فقال لها : أمهليني حـتى أقـضي حاجتي ، فدخل إلى الحمام ليقضي حاجته ، وإذا به يأخذ من الأوساخ الـتي في ذلك المكان ، ويلطخ بها جسده ، ثم يخرج عليها فما أن رأته في تلك الـصورة ، إلا فتحت له الباب وطردته من بيتها ، فخرج واغتسل ، فلما اغتسل انبعث من جسده رائحة المسك ، وأصبحت تلك الرائحة تخرج من جسده إلى أن لقـي الله تبارك وتعالى ، من غير عطر ولا تعطر ، إكراماً من الله تبارك وتعالى لمن حمـى نفسه من الوقوع في هذا الذنب العظيم ، وسُمِّيت هذه الأسرة بأسرة المِـسْكِي ، وسمي المكان الذي عاش فيه بحي المسكي ، وهو موجود في بلاد الشام إلى يومنـا هذا .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ المؤمن الشاب إذا خاف على نفسه بعد أن صلَّى لله تعالى وأدى الواجبات، وترك المحرمات ، وخشي الوقوع في هذه المصائب ؛ يلجأ إلى الله ؛ ولا ملجأ من الله إلا إليه .

وكذلك فإن المؤمن العاقل الفطن يرفض اللذة العاجلة التي يعقبها ندمٌ دائمٌ ، وعارٌ ونارٌ ؛ بل يقدِّم المنيةَ على الدنية ؛ فها هو يوسف عليه السلام يختار السجن على الوقوع في الفاحشة .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ لما رأت زليخا أن ألسنة الناس تتكلم في هذا الأمر ، وأن الأمر قد انتشر بين الناس ، قالت لزوجها : لا مفر من أن تخرج هذا الرجل إلى الناس ، وتفضحه أمام الناس ، وتسجنه حتى يعرف الناس براءتي . مكر وخبثٌ ودهاء ؛ كل أعمالها مكرٌ من أولها إلى آخرها والعياذ بالله عز وجل ، فإذا بالعزيز يستجيب لها كما يستجيب الزوج الذي ليس لديه عقل ولا رشد عندما توجهه زوجته إلى طريق الفساد ، أو إلى طريق تضييع الأموال ، أو إلى طريق لا ينفع وإنما يضر ، فيستجيب لها ويصبح هذا الزوج مربوطاً بحبل بيد زوجته ، تسوقه حيث شاءت ، وإلى أي مكان أرادت ؛ حتى ولو كان ضاراً به وبأولاده ، وبنفسه وزوجته ، والعياذ بالله عز وجل .

قال سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما : فأمر به عزيز مصر فحُمِلَ على حمارٍ وضُرِبَ بالطبل ونودي عليه في الأسواق : إن يوسف العبراني أراد سيدته بسوء ، فجزاؤه أن يُسجَن . وأدخل عند ذلك السجن ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ قيل سبع سنوات وقيل أقل وقيل أكثر .

يوسف ﷺ في محنة السجن :

بعدما قرر العزيز وزوجته إدخال يوسف ؈ إلى السجن ، بدأت المرحلة الرابعة من الابتلاء الذي نزل وأصاب نبي الله يوسف ؈ ، فبعد حقد إخوته وحسدهم ، وبعد الإلقاءِ في الجُبّ ، وبعد الرِقِّ في بيت العزيز ، وبعد الإغراء بالشهوات ، وبعد الإتهام في الفاحشة ، بعد كل هذه الإبتلاءَات يأتي البلاء بالسجن . هذه مجموعة من الإبتلاءات يبتلى بها نبي الله يوسف ﷺ ، وهكذا غيره من أنبياء الله يبتلون بصنوف البلايا ، فيضربون أروع الأمثلة في الصبر والرضا ، وبيان حقارة الدنيا وهوانها .

وأُدخِلَ يوسف في السجن ، ومكث فيه سبعَ سنين كما ذكر ذلك المفسرون ، امتحاناً عظيماً ، وابتلاءً كبيراً من الله ، وما أشد الابتلاء والامتحان عندما يكون على البراءة ، وعلى الصفاء ، فجزاء صبره ، وعدم وقوعه في الحرام ، وطهارته ، ونقاوة سريرته ، أن يُعامَل بأن يُسجن ، فلذلك يكون الألم أشد لأنه بريء ، ومع ذلك دخل السجن .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ تمضي الآيات المباركات تُنيرُ لنا طريقنا ، وتشرح لنا تلك القصة المنيرة التي يهتدي بها كل مسلمٍ ومؤمن ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ رأوه متجهاً إلى طاعة الله، صابراً ذاكراً لله ﷻ، يتعامل معهم بكل لطفٍ وبكل سماحة ، فارتاحت له أنفسهما ، وقصَّا عليه رؤياهما ، وذكر المفسرون أن هذين الفتيين هما : الساقي ، وهو ساقي الملك ـــ ملك مصر ـــ والآخر : هو الخباز ، خباز ملك مصر ، وذكروا أنهما اتفقا على قتل ملك مصر بأن يضعوا السم في طعامه وشرابه ، ولكن الساقي تراجع بعد ذلك ، فلما قدم الخباز الطعام إلى الملك ، قال الساقي للملك : احذر فإن فيه السم ؛ فقال الخباز للملك : وإن في شرابه السم ، فأمر الملك الساقي أن يشرب الشراب فشربه فلم يحدث له شيء ، وأمر الخباز أن يأكل الطعام فنكل ، ولم يأكل فعند ذلك أعطاه للبهائم فهلكت البهائم ، فعرف أن هذا الخباز هو السبب ، ولكنه أدخلهما السجن مع بعضهما البعض ، وكانت هذه القصة سبباً في دخولهما ، وإذا بسيدنا يوسف عليه السلام لا يبادرهما بالإجابة، ولكنه يبادرهما فيعرفهما برسالته ودعوته، ومعجزة الله له ؛ لأنه ما من نبي يجيء إلا ومعه معجزة بيِّنةٌ ، فإذا به يقول لهما : ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ﴾ قبل أن يأتي الطعام أقول لكما سيأتيكما اليوم كذا وكذا وهذه من علوم الغيب ، وهي من معجزات الله لأنبيائه ورسله، وهذا فيه تثبيت حتى يدعوهما إلى الله ، ليست للدعاية ، وليست للرياء والسمعة ، وإنما يريد أن

يدعوهما إلى الإسلام ، فقبل أن يدعوهما إلى الإسلام إذا به يعرفهما بمعجزتـه ، وببينته وبرهانه الذي جاء به من عند الله ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ ثم لا تظنّوا أني كاهن و ساحر ، أدَّعي علم الغيب وأتعامل مع الشياطين ؛ لا ، قال : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ هذه هي النبوة والرسالة ، وهي من عند ربي جل وعلا ؛ نسب العلم إلى الله تعالى .

دعوة يوسف ﷺ إلى الله في السجن :

﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ يقصد عزيز مصر الذي كان معه ، وقوم فرعون الذين عاش معهم ، فقد ترك شركهم وكفرهم واتبع دين الله تبارك وتعالى ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ إنه يفتخر بفضل الله تعالى عليه ، ليس بالمال ، ولا بالجاه ، ولا بالمنصب ، ولا بالوجاهة ، ولا بالجمال ، وإنما فضل الله عليه أنه نجاه من الشرك ، وأنه أكرمه بالإسلام ، وأكرمه بالإيمان ، ذلك من فضل الله علينا ؛ وهكذا المؤمن ، يفرح بالإسلام ، يفرح بالصلاة والطاعة ، ويفرح بعبادة الله ﷻ ، قال تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1] .

---

(١) يونس : ٥٨ .

قـــال : ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ ولكن أكثر الناس لا يعرفون نعمة الدين ، ولا نعمة الإيمان ، ولا نعمة التوحيد ، ويقدرون نعم الدنيا وملذاتها وشهواتها الفانية ، وينسون أن هناك عنـــد الله ﷻ أجراً مُدَّخراً ، ثم أَخذَ يدعوهم إلى الله ، وهكذا الداعية ينبغي عليـــه أن يدعو إلى الله تبارك وتعالى ، وينتهز الفرص المناسبة ، ليست الدعوة كلما سنح له وقت تكلَّم ودعا الناس إلى الله ، سواءاً كانوا في راحة أو في مشقة ؛ في رضا أو في سخط ؛ لا ، ليست هذه دعوة ، وإنما الدعوة أن ينتقي الوقـــت المناســـب ، الذي ينفع فيه الكلام ويُؤثِّر .

لقد جاء إليه هذان الفتيان الراغبان يريدان معرفة جواب معـــين ، وإذا بـــه يستغل هذه الفرصة ليُحبِّبَ لهما الدين ، ويعرفهما على الله تعالى ، وانظر إلى هذا الأسلوب النبوي الكريم ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾ كلمة تلطف وتودد ، مع أنهمـــا كافران ، لم يكونا مسلمين ، ومع ذلك تلطَّفَ معهما في دعوتهما ، فكيف بمـــن تدعوه إذا كان مسلماً تاركاً للصلاة ، وتاركاً للعبادة ، أو مرتكباً للمحرمات ، لاشك أنك تحتاج إلى هذا الأسلوب الحكيم ، قال : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ .

يتحدث معهما بالعقل والمنطق : آلهة متعددة أم إله واحد ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ .

يوسف ﷺ وتعبير الرؤيا :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾ الآن بدأ الإجابة على سؤالهما ، بعد أن دعاهما إلى الله ، ونصحهما بالكلمة الطيبة ، وبالأسلوب النبوي الحكيم ، قال : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ فقيل إنهما قالا له : ما رأينا رُؤيا ، ولا شاهدنا في منامنا شيئاً !!. فقال لهما : ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [(١)] انتهت المسألة ، ليس فيها لعبٌ ، ليس فيها عبث ، ليس فيها إلا الحق الذي أمر الله به تبارك وتعالى ، فأفتى بتفسير رؤياهما : أن من رأى أنه يعصر خمراً ، والخمر لا يُعصر وإنما يعصر العنب الذي يصير خمراً ، أنه سيعود إلى ربه ـ أي الملك ـ ويسقيه مرةً أخرى ، وأن الآخر سيُصلَبُ وتأكل الطير من رأسه ، فقال عند ذلك ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ جواب مختصر ولكنه علم من علم الله تبارك وتعالى .

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال : (الرؤيا مُعلَّقةٌ بِرِجْلِ طائرٍ ما لم يحدِّث بها صاحبها ، فإذا حدَّث بها وقعت ، ولا تحدثوا بها إلا عالماً أو ناصحاً أو لبيباً ، والرؤيا الصالحة جزءٌ من أربعين جُزءاً من النبوة) [(٢)].

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٤/ ١٨٤٣).

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٦١٨٣) وقال محققو المسند : حديث حسن لغيره .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ قال للذي سينجو منهما وهو الساقي: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني : اذكرني عند الملك ، وأني مظلوم ، ودخلت السجن ظلماً وعدواناً ، وأني بهذه الصفة التي رأيتني بها ، ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ نسي أن يذكر يوسف عند الملك ، ويخبره بخبره ، وهذا بأمر الله ، وذكر بعض المفسرين : أن الله تبارك وتعالى عتب عليه لما اشتكى وطلب المعونة من هذا الملك ، وأوصى هذا الساقي أن يتوسط له لدى الملك ، عند ذلك جاءه جبريل عليه السلام وقال له : يا يوسف ! مَن خلّصك من القتل من أيدي إخوتك ؟! قال : الله تعالى . قال : فمن أخرجك من الجبّ ؟ قال : الله تعالى . قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى . قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى . قال: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟! قال: يارب كلمة زلّت مني ! أسألك يا إله إبراهيم وإسحاق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني ؛ فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين [(١)].

وليس معنى هذا أن الإنسان لا يستعين بالناس ، المسلم يستعين بأخيه المسلم ، وهو يعلم في قرارة نفسه أن الله هو النافع الضار ، أن الله هو الذي يجعل الأمور تصير إلى الخير ، أو تصير إلى الشر ، وأن هذا العبد الذي تذهب وتشتكي إليه ،

---

(١) « تفسير الطبري » (٩/ ١٢٩).

أو تطلب منه أمراً من أمور الدنيا ، ما هو إلا سبب ؛ تأخذ بالسبب ، وقلبك معلق بالله تعالى ، أما إذا أخذت بالسبب ، وقلبك ليس معلقاً بالله ، وإنما معلقٌ بذلك السبب ، تذهب إلى الإنسان : يا فلان أخرجني من الأزمة ، وكله ظن أن هذا الإنسان يستطيع أن يخرجه من هذا الهم ، ومن هذا الكرب ، فهذا لا شك أنه من الأمور التي تؤثر في إيمان المسلم ، فتؤثر في يقين المسلم ، وفي توحيده لله سبحانه وتعالى ، فلا ينبغي للمسلم إلا أن يكون خاضعاً لله ﷻ ، وموقناً بما عند الله ﷻ ، من الخير والشر ، فيسأله تبارك وتعالى من خيره ، ويستعيذ به ﷻ من الشر كله عاجله وآجله ، إذاً المسلم يطلب العون والمساعدة من الآخرين ، من باب الأخذ بالأسباب ؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[1] .

وأما بالنسبة ليوسف عليه السلام فهو نبي كريم ، ومكانة يوسف كنبي تجعل استعانته بأحد من البشر من باب الأخذ بالأسباب فقط ، وإلا فالقلب معلق بالله ﷻ بلا شك ولا ريب .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ سبع سنوات كاملة ، وبعدها رأى الملك رؤيا ، وكانت هذه الرؤيا فرجاً من الله لسيدنا يوسف عليه السلام .

---

(١) المائدة : ٢.

رؤيا الملك وتعبيرها :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ رأى أن بقرات يخرجن من النهر سمينات ، ثم تتبعهن بقرات عجاف ضعيفات ، وإذا بالبقرات الضعيفات يأكلن السمينات ، ورأى كأن سنابل القمح الخضراء اليانعة ، كأنها تلتف عليها شجراتٌ يابساتٌ فتأكلها وتلتهمها ، فقام من نومه فزعاً مذعوراً ، وطلب تعبير رؤياه ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ ﴾ جمع الكهنة والرهبان ، وكل من كان عنده علم ، وسألهم عن تلك الرؤيا ، ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ لم يُعلمهم الله سبحانه وتعالى ، لأنه ادَّخر ذلك للأنبياء والصالحين أمثال يوسف عليه السلام ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ يعني بعد سنين طويلة ، تذكر الساقي ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ فأرسلوه إلى يوسف ، فقال له : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا الساقي يقول: أفتني في هذه الرؤيا لعلي أرجع إلى الناس وأخبرهم بمكانتك وبفضلك، وبأنك مظلوم، لعلهم يعلمون فضلك، فيعيدونك إلى وضعك ومكانك ، فما كان من يوسف عليه السلام ، إلا أن أجاب الجواب ، ولم يشترط شيئاً ، لم يقل لهم : لن أعطيكم تفسير الرؤيا إلا إذا أخرجتموني من السجن ، ولم يعاتب هذا الرجل ، كيف ينساه وقتاً طويلاً ، وهذا يدل على شهامته ونزاهته ، وبُعده عن المزايدات

صلوات ربي وتسليماته عليه ﴿ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴾.

ففسَّر البقرات السمينات بالسبع السنوات المباركات ، والبقرات العجاف بالسنين العجاف الجافة ، ونصحهم أن يقتصدوا في صرفِ الطعام في السبع سنوات الأولى ، وأن يُحَصِّنوا الزرع ﴿ فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ أي : اتركوه في سنبله حتى لا يفسد وحتى لا يصل إليه السوس ، ويبقى للسنوات السبع العجاف التي تأتي بعد ذلك ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ وهذه لم تكن في الرؤيا ، وإنما كانت من وحي الله لسيدنا يوسف عليه السلام ؛ يغاثون بالمطر ، ويعصرون من كثرة الفواكه والثمار ، يعصرون الزيت ، ويعصرون العنب والقصب والزيتون والسمسم وغيرها .

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ لم يشأ أن يخرج لما جاءه مندوب الملك يطلب منه أن يخرج من السجن ، لما جاءه الرسول لم يخرج عليه السلام ، بل ﴿ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ ﴾ قال صلى الله عليه وسلم : يمدح نبي الله يوسف عليه السلام في ذلك الموطن : (... ولو لبثتُ في السجن ما لبثَ يوسفُ لأجبت الداعي)[1] وهذا تواضع من النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإلا فهو أعلى مقاماً من سيدنا يوسف عليه السلام ، ولكن تأدباً ، وحتى يُعَرِّفنا على مقام سيدنا يوسف عليه السلام ، ويرفع من شأنه ، وفي رواية أخرى : (لو كنت أنا

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) .

لبادرتهم الباب) يعني لو انتظرت سبع سنين في سِجني ويأتيني الفرج ، لأسرعتُ في الخروج ؛ ولكن يوسف عليه السلام لم يشأ أن يخرج إلا بصفحةٍ بيضاء ؛ لا يتكلم فيه أحد .

﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ ، ولم يقل امرأة العزيز ، ما أراد أن يفضحها ، ولا أراد أن يفضح النساء ، نتعلم الأدب في قصص الأنبياء ، أدب اللفظ ، أدب الحديث.

الإعلان ببراءة يوسف ﷺ وخروجه من السجن :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ الملك جمع النسوة ، وقال : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ﴾ هذه أول شهادة من النسوة ، ما علموا عليه من سوء ، ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال بعض المفسرين أن هذا الكلام الأخير جاء على لسان يوسف عليه السلام ، وليس على لسان امرأة العزيز ، أي أنه قال : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ والله أعلم .

ومضت السنوات السبع التي فيها الخيرات والأرزاق ، وكان نبي الله يوسف ﷺ يجمع فيها الطعام ويخزنه في المخازن ، تَحَسُّباً للسنوات السبع العجاف التي جاءت كما رأى ملك مصر في تلك الرؤيا ، وفسرها نبي الله بوحي من الله ﷻ ، فجاءت السبع سنوات العجاف بعد السبع سنوات الخيرة المباركة ، والتي أعد لها نبي الله يوسف العدة كلها ، فلما جاءت السنون العجاف بدأ الناس يتوافدون من كل حدب وصوب يقصدون يوسف ﷺ ، الذي تناقل الناس عدله وكرمه ، وعطاءه وإحسانه للناس ، ومن ضمن من وصلهم الخبر أبوه يعقوب وأولاده ، فلمَّا عضَّهم الجوع بنابه تحركت قافلتهم إلى أرض مصر ، يقصدون نبي الله يوسف العزيز ، ليعطيهم مما أعطاه الله تبارك وتعالى من الخيرات والبركات .

لقاء يوسف بإخوته بعد طول فراق :

ويصف لنا القرآن العظيم هذا اللقاء الأول بعد طول فرقة بين تلك الأسرة ، قال عز من قائل سبحانه : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ عرفهم لأنهم لم يتغيروا في أشكالهم وصورهم عما كانوا عليه ؛ لأنهم كانوا كباراً ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ لأنه كان صغيراً وكبر ، فتغيرت ملامحه ، وتغير لبسه وهيئته ، فما كان يخطر على بالهم أن يكون هذا هو يوسف الذي ألقوه في الجب قبل سنين وسنين ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ لما جاءوا إليه قال لهم : لماذا جئتم إلى هذه البلاد ؟ قالوا : جئنا لنمير أهلنا وقبيلتنا. قال : بل جئتم جواسيس

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ وجاء الفرج بعد تلك السنين ، وبعد تلك المشقة ، جاء الفرج من الله سبحانه وتعالى ، ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

العز والتمكين بعد المحنة والابتلاء :

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : مسؤول المالية والاقتصاد الوطني ، وهنا يوسف عليه السلام ذكر ما عنده من الخبرة والعلم ، وفي هذا من الفوائد أنه لا بأس للإنسان أن يذكر ما لديه من الخبرات والميزات والخصائص والصفات الحميدة كالصدق والأمانة وغيرها .

وأخيراً يختم الله تبارك وتعالى هذه الآيات بقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بعد تلك المحن كلها يخرج يوسف ﷺ من السجن عزيزاً مُمَكَّناً له في الأرض ، غنياً قوياً ، وتلك سنة الله لمن اتقى وصبر ، فإن الله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين .

والمحسن الذي أعطى لوجه الله تبارك وتعالى، من علمه، وماله، وفضله ، وجاهه ، لا يضيع عند الله تبارك وتعالى ، لو ضاع عند الناس فإنه عند الله عز وجل لن يضيع ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ليس في الدنيا فقط لا يضيع، بل لا يضيع الله أجرهم حتى في الآخرة ، لهم عند الله عز وجل الأجر الأوفى في دنياهم وأخراهم .

علينا . قالوا : لا ، فنحن أبناء يعقوب . قال : هل لكم من إخوة ؟ قالوا : كان لنا أخ ، ولكنه هلك ومات في الصحراء ، وهناك آخر لا زال عند أبي . فقال لهم : إن كنتم صادقين ففي المرة القادمة لن أعطيكم الطعام حتى تأتوني بهذا الأخ الذي من أبيكم ، تؤتوني به فإن كنتم صادقين زودتكم ، وإن كنتم كاذبين فلا تقربوا أرضي ، ولا تقربوا هذا المكان بعد ذلك ، وكانت هذه حيلة ألهمه الله تبارك وتعالى إياها .

وهنا قد يسأل سائل : لماذا لما رأى يوسف إخوانه ، لم يبادر إلى أبيه ، ويسأل عن مكانه فهي فرصة بعد سنين طويلة من الفرقة ؟ .

فالجواب : أن ذلك كان بأمر من الله تبارك وتعالى ، لحكمة يريدها الله ﷻ ، ليزيد من الابتلاء على يعقوب، وليزيد من إظهار العبرة والعظة في هذه القصة العظيمة.

وبعدما جَهَّزهم ، وحمل لكل فرد حمل بعيرٍ كامل ، طلب منهم أن يحضروا أخاهم من أبيهم معهم في المرة القادمة ، وقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ لأنكم كاذبون فيما ادعيتموه ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ سنبذل المستحيل في إقناع أبيه ، وإنا لفاعلون ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ اجعلوا بضاعتهم : المال الذي أحضروه ليستبدلوا به الطعام ؛ فجاءوا بملابس وأقمشة وغير ذلك ، لأن العادة عندهم أن المبادلة لا تكون بمالٍ ، وإنما ببضاعة ببضاعة ، فجاءوا ببضاعة ، فأمر يوسف عليه السلام أن ترد عليهم تلك البضاعة ، حتى يعودوا مرةً أخرى ،

ويظنوا أنهم قد نسوا ذلك المال ؛ تشجيعاً منه وترغيباً لعودهم مرةً أخرى ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ ﴾ إلى يعقوب عليه السلام ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾ يعني في السنة القادمة لن نتمكن من أن نأتي بكيل مرةً أخرى ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا ﴾ حتى يُصَدِّقنا العزيز ﴿ نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أكَّدُوا في هذه المرة الحفظ ، لأنهم عرفوا أنه لن يقبل ﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ولأجل هذه الكلمة العظيمة حفظ الله أولاده ، وردهم إليه سالمين ، فهذه كلمة عظيمة ، إذا أراد المسلم أن يستحفظ شيئاً من نفسه أو ماله أو ولده ؛ فليقل بمثل دعاء يعقوب عليه السلام ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فإنه بإذن الله عز وجل لن يضيع له شيء .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴾ تشجعوا أكثر للذهاب مرةً أخرى إلى يوسف عليه السلام، لما رأوا أن بضاعتهم رُدَّت إليهم ، وهم بالتالي سيأخذون أضعافاً مضاعفة من الخيرات والبركات ﴿ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ ﴾ فأعطوه الموثق ، طلب منهم أن يقسموا بالله ، يعطوه العهد والميثاق ، أن لا يفرطوا في بنيامين أخي يوسف عليه السلام الأصغر ﴿ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ ﴾ إلا أن تهلكوا جميعاً ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾ خاف عليهم من العين ، فطلب منهم أن لا يدخلوا من باب واحد إلى مصر ، وإنما يدخلون من أبواب متفرقة ،

ولماذا لم يطلب منهم في المرة الأولى ذلك ؟ لأنهم في المرة الأولى كانوا غرباء ، قد يطردون وقد لا يأخذون شيئاً ، ولكنهم لمَّا ذهبوا إلى مصر ، أكرمهم يوسف وأسكنهم ، وأحسنَ ضيافتهم ، فالناس تنظر إليهم بعين الاهتمام ، هؤلاء تَمَيَّزوا عن الناس بالإكرام ؟! فإذا عادوا وزاد معهم بنيامين ، يكونوا عرضةً للعين والحسد من الناس ، بسبب اهتمام يوسف بهم من بين بقية الناس .

أخذ الأسباب للوقاية من العين :

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾

والعين حقٌ فالواجب على المسلم أن يُحَصِّن نفسه بذكر الله تعالى ، وقد كان النبي ﷺ يُحَصِّنَ الحسن والحسين ؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يُعوِّذ الحسن والحسين ، ويقول : (إنَّ أباكما كان يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامَّةٍ ، ومن كل عينٍ لامَّة) [1] .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ؛ أي : لا ينفعهم أن يدخلوا من تلك الأبواب إلا بأمر الله ، وقدرة الله ، وإلا بما علَّمَ الله ﷻ نبيَّ الله يعقوب من هذا العلم .

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧١) ، والترمذي (٢٠٦١) ، وأبو داود (٤٧٣٧) .

فالواجب على المسلم أن لا يظهر أمام الناس بمظاهر الافتخار ، ومظاهر القوة والعزة ، والسلطان والمال ، فإنه قد يكون سبباً للعين والحسد الذي يهلك ماله وولده ونفسه ، وهذا من خلق الإسلام ؛ أن يتواضع المسلم ، وأن يتأدب ، وأن يكتم النعمة التي أكرمه الله بها تبارك وتعالى ، لا أن يتفاخر أمام الناس ، فإنه قد يُعَرِّضُ نفسه للعين التي حَذَّرَنا منها النبي ﷺ .

حيلة يوسف ﷺ لضم أخيه إليه :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قام يوسف ﷺ بإسكان كل أخوين من إخوته مع بعضهما في سكن واحد ؛ فبقي بنيامين ليس له أخ يسكن معه ، فقال : هذا يسكن معي ، فلما دخل معه ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ضمه وَقَبَّلَهُ ، والدموع تجري من عينيه ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وأخبره بخبره ، وقَصَّ له القصة ، وَدَبَّرَ بأمرِ الله تبارك وتعالى له تدبيراً حتى يبقى معه ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ ﴾ وهي كيل الملك العزيز ، وهو من ذهب مُرَصَّع بالجواهر ، ﴿ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ بنيامين وفي خاصة ملابسه ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ نادى منادٍ ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ من جاء به من غير تفتيش ، وأقر بنفسه فله حمل بعير مجاناً هدية ، وأنا بذلك زعيم أي ضامن ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ كيف تنسبون السرقة إلى أُناس هم أبناء الأنبياء ، وهم من الصالحين ؛ من شدة ثقتهم في أنفسهم . ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذه الحيلة من سيدنا يوسف عليه السلام ، أنه أخذ بعقوبة السارق في دين يعقوب عليه السلام ، فعقوبة السارق في دين يعقوب أن يؤخذ عبداً لمدةِ عام ، وعقوبة السارق في دين ملك مصر فرعون أن يُضرَبَ ويُؤخَذ منه الضعفين من قيمة الشيء الذي سرقه ، فهو سألهم : كيف يكون جزاء السارق عندكم وفي دينكم ؟ فقالوا : هو جزاؤه . يعني أن يكون عبداً سنةً كاملةً ﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ وأخذ يبحث فيها ، فلما وصل إلى وعاء أخيه ، قال : لا يمكن لهذا الصغير أن يسرق ، قالوا : لا ، لابد أن تفتش أنت حتى هذا الصغير ، حتى هم شجعوه على ذلك ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ ﴾ فبُهِتُوا وفجعوا وكانت صاعقةً عليهم ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ لو أخذ بما عندهم في دينهم ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فوق كل عالم من هو أعلم منه ، إلى أن يصل العلم إلى الله سبحانه وتعالى ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه : الله العليم ، وهو فوق كل عالم .

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ تكلموا أمام يوسف عليه السلام ، فقالوا : هذا الغلام ، أُمُّه راحيل ، وأخوه الأول قد سرق ، وقد كان يُروَى أن يوسفَ عليه السلام سرق صنم جده أبي أمه فكسره [1]. فلعلهم كانوا يقصدون ذلك ، ولعلهم إنما أرادوا التهكم ليس إلا ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ يعني : هذا بنيامين مثل أخيه الأول ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ ﴾ وقال في نفسه ﴿ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ثم بعد ذلك تذكروا قسمهم لأبيهم ؛ قالوا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ بعد أن تطاولوا تذكروا قسمهم بالله ، وكان فيهم بقية من دين ومن خوف من الله تبارك وتعالى ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ كيف نأخذ غير الظالم ؛ نأخذ المخطئ ، أما غير المخطئ فلا نأخذه ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ ﴾ لما استيئسوا من يوسف ومن إقناعه ، خلصوا أي : اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم وتناجوا : ما هو الحل في هذه المعضلة الكبرى ؟ قال كبيرهم روبيل وهو الذي كان أشار عليهم ألا يقتلوا يوسف وأن يلقوه في الجب ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ لن أخرج من مصر ، حتى يأذن لي أبي بالخروج ﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٤/ ١٨٥٢) .

إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ هذا الذي شهدنا وهذا الذي رأيناه ﴿ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ فقال لهم نبي الله يعقوب لما وصلوا إليه : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ ﴾ ..

شدةُ البلاء يعقبه سرعة الفرج :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ ﴾ لما ازدادت المحنة على سيدنا يعقوب ﷺ ، أدرك أن الفرج قد اقترب ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾[1] فقد ولده يوسف ، فلما فقد الثاني عرف أن مع زيادة الكرب ، ومع زيادة البلاء ، قد اقترب الفرج ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وهكذا يعرف الصالحون وعباد الله ممن علَّمهم الله ﷻ أن بعد العسر يسراً وما ضاقت إلا فُرِجَت ، وما بعد الكرب إلا الفرج ، وما بعد الصبر إلا النصر بإذن الله تبارك وتعالى ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أخذ جانبا عنهم ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ لما جاءته المحنة الثانية تذكر يوسف ؛ ما تذكر بنيامين أولاً ؛ لأن بنيامين لم يُقتَل ، وهو يعرف أنه موجود في مصر ، وأنه هناك حي يرزق ، وكذلك أخوه الكبير ، ولكن

---

(١) الشرح : ٥.

يوسفَ لا يدري في أي مكان هو ؟ ولا فوق أي أرض ؟! ولا تحت أي سماء ؟ فلذلك هيَّجته هذه المحنة ، وذكرته المحنة التي قبلها ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ ﴾ أي : ياحزَنا ، ويا جزَعا على يوسف ؛ قيل : إنه أصابه العمى ، أو ضعف البصر ، من شدة بكائه على يوسف عليه السلام ؛ ﴿ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ يعني : مكظوم ؛ أي مملوءٌ من الحزن ، ممسك له لا يبينه ولا يَبُثُّه ، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه [١].

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أي : مريضاً ، وقال مجاهد : الحرض : ما دون الموت . وقال قتادة : حتى تَبْلى أو تهرَم [٢]. ﴿ أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾ فأعرض عنهم وقال ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ما اشتكيت إليكم البث : وهو ما يخرجه الشخص إلى الناس ، والحزن : وهو ما يكظمه الإنسان في قلبه من الهم والغم . إذا كظمت الهم والغم في قلبك فهو حزن ، وإذا أخرجته للناس فهو بث ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ .

ثم بعد ذلك : ما كان من يعقوب عليه السلام ، والإيمان يملأ قلبه ، والثقة بالله ، واليقين في ما عند الله ، إلا أن قال لأبنائه ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ ﴾ بعد كل هذا البلاء والتعب والمرض ، لم ييئس من رحمة الله ، وهكذا المؤمن دائماً يستروح بذكر الله تبارك وتعالى ، ووعده وفضله ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن

---

(١) انظر « فتح القدير » للشوكاني (٣ / ٥٠) ، و « تفسير الطبري » (١٣ / ٢٩٣) .
(٢) « تفسير الطبري » (١٣ / ٣٠٢) .

يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ ﴾ يعني من فــرج الله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ فلما دخلوا عليه في هذه المرة وقد أصابهم الفقــر ؛ ليس لديهم ما يعوضون حتى يأخذوا الطعام والشراب إلا أشياء رديئــة وقليلــة ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ ﴾ رديئة ﴿ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ عند ذلك لما رأى يوســف إخوانه بهذا الحال ، وبهذه المسكنة ، وبهذا الضعف ، وبهذا البلاء الذي نزل عليهم ، رَقَّتْ نفسُهُ ، وحنَّ قلبه ، وفاضت عينه بالدموع عليه السلام ، ونطق من تَوِّها بالحقيقة التي أخفاها عنهم ، والتي خبأها عنهم بأمر الله سبحانه وتعالى .

مصارحة يوسف ﷺ لإخوته بما فعلوه معه :

﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ ما أعظم هذا الموقف ؟! وما أعظم هذه القصة ؟! فلما قال ذلك تفحَّصُوا في وجهه ، تفحصوا في عينه ، تفحصوا في شكله ؛ فإذا هو يوسف ؛ عند ذلــك عرفــوه ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ الله لا يضيع أجر المحسن ، فيا أيها المحسن في طاعتك ، في عبادتك ، مع الناس بأموالك ، لا يضرك أحد من خلق الله تعالى ، وانتظر من الله تبارك وتعالى العطاء والفــضل ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ ﴾ قاعــدة عظيمة تكتب بماء الذهب ، تنقش في قلوبنا ، في بيوتنا ، في حياتنا ، ﴿ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ ﴾ بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ، بالصبر واليقين يحــصل العِــزُّ والتمكين ، بالصبر واليقين تنال سعادة الدارين .

ألا بالصبر تبلغ ما تريد　　　وبالتقوى يلين لك الحديد

صبرٌ مع خوفٍ من الله ، والتزامٌ بحدود الله ؛ ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

عفوٌ ومسامحةٌ من يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ اعترفوا وأقروا بخطئهم ، وأقروا بفضله عليهم ؛ لأن الله اختاره نبياً ، ولم يخترهم لهذه المكانة العظيمة ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ هكذا يكون الصالح ؛ يعفو عمَّن ظلمه ؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من كُنَّ فيه حَاسَبَه الله حساباً يسيراً ، وأدخله الله الجنة برحمته) قالوا : وما هي يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ؟ قال : (تُعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمَّن ظلمك ، فإذا فعَلت ذلك يُدخلك الجنة) [1] .

هذه هي الصلة التي لا يفعلها إلا الخُلَّصُ من أهلِ الإيمان ، وإلا الصادقون من عباد الله تبارك وتعالى ، ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فأخذوا قميصه ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ يعني: خرجت من أرض مصر، ويعقوب في صحراء الشام ، في فلسطين ، في بلاد كنعان ؛ أول ما خرجت القافلة من مصر ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ نقل الله

---

(١) رواه البزار (١٩٠٦)، والطبراني في الأوسط (٩٠٩)،(٥٠٦٤)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

ريح يوسف ، وأرسل ريحاً تنقلها وتُعَجِّلُ بالبشرى قبل أن يأتيَ البشير من الناس ، جاءت البشرى من الله قبل أن يأتي البشير من الناس ، وهكذا المؤمن تَأتيه البشرى في قلبه ، بأن الله سَيُفَرِّجُ عليه ، وسيأتيه النصر ، فيشعر بارتياح وبسعادة وبطمأنينة وبرضاً من الله ﷻ ، ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ يعني لولا أن تقولوا إنني أصابني التخريف ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ إنك لفي خطئك وبعدك عن الصواب ، منذ زمان بعيد وأنت في هذا الخطأ ، وفي هذا البعد عن الصواب ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ ﴾ البشير هو ابنه الأكبر ؛ قال لهم : كما أني أحضرت لهم القميص الملطخ بالدم ، وفجعته في ولده ، فأريد أن أحضر له قميص يوسف ، حتى أكون أنا الذي أُبَشِّره ، فأخذ ذلك القميص ﴿ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ الخاطئ : هو الذي يخطئ مع التعمد ، والمخطئ : الذي يخطئ من غير تعمد ، فهم كانوا خاطئين لأنهم تعمدوا الخطأ ؛ فقال لهم يعقوب عليه السلام ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لم يستغفر لهم في الحال ، لما كان في قلبه من الحزن ، ومن الغضب عليهم ، وقيل : إنه أراد أن يؤخر الاستغفار إلى وقت الأسحار ، لأن الاستغفار في وقت الأسحار يغفر الله تبارك وتعالى به لعباده ، كما كان يفعل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه وغيره من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، وكذا السلف الصالح من بعدهم .

وقد قال الله ﷻ ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[(١)] فأَجَّلَ استغفارَه لهم إلى وقت السحر .

لقاءُ يوسف لأبويه وتحقق الرؤيا :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ دخل يعقوب وكان متكئاً على ابنه الأكبر روبيل ؛ وخرج يوسف من مصر مع أربعة آلاف من جنوده وحشمه وخدمه ، فوقف يعقوب يسأل ولده : أهذا فرعون مصر ؟ أهذا ملك مصر ؟ فقال له روبيل : هذا ولدك يوسف ، قد من الله عليه .

فعند ذلك بادره ولده يوسف عليه السلام ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[(٢)] أي أجلسهما معه على كرسي حكمه وسلطانه ﴿ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [(٣)] وكان السجود في ذلك الزمان ، وفي ذلك الشرع جائزاً ، وعلامةً على التكريم والاحترام ، ليس فيه عبودية ، ولكنه نسخ في شريعة الإسلام ، فلا يجوز السجود إلا لله تبارك وتعالى .

---

(١) آل عمرن : ١٧ .

(٢) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : « في البداية والنهاية » (١ / ٢١٨) قيل : كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة. وقال بعض المفسرين فأحياها الله تعالى ، وقال آخرون : بل كانت خالته ليا ، والخالة بمنزلة الأم . وقال ابن جرير وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ، فلا يُعوَّل على نقل أهل الكتاب فيما خالفه. وهذا قوي ، والله أعلم .

(٣) أي : سجد له الأبوان والإخوان الأحد عشر تعظيماً وتكريماً .

﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ وانظروا إلى هذا التعامل ، لم يشأ أن يذكر قصة إخوانه ، وأنهم رموه في البئر ، وأنهم فعلوا وفعلوا ، وإنما اختصر كلامه ونسب الأمر إلى الشيطان ولم ينسبه إلى إخوانه فقال ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ ثم ختم هذه القصة بعد أن مَنَّ الله عليه بهذا الفرج ، وهذا النصر ، وهذا الخير بأنه أراد وأحب لقاء الله تبارك وتعالى ، لأنه علم وعرف أن هذه الدار ليست دار خلود ، وليست دار استقرار ، فلا يصح أن يركن إليها الإنسان ، ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ فطلب لقاء الله ، وطلب جوار الله ، وطلب ما عند الله ، لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى مما في هذه الدار الفانية الزائلة ، فعليه وعلى نبينا محمدٍ ﷺ أفضل الصلاة والسلام .

ثم بعد ذلك عاش بنو إسرائيل في مصر ، وكان عددهم لما دخلوها اثنين وسبعين من الرجال والنساء ، ولما خرجوا مع موسى عليه السلام ، وعبروا عرض البحر ، ثم تبعهم فرعون ، كانوا قد بلغوا (ستمائة ألف) كما تذكر روايات المفسرين .

ولما مات يعقوب عليه السلام في مصر ، وكان قد أمر أن يُدفن مع أبيه إسحاق في أرض كنعان في أرض الشام ، ونَفَّذ يوسف عليه السلام وصية أبيه يعقوب .

قصة يوسف عليه السلام من أدلة نبوة محمد ﷺ :

قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ وفي هذه الآية دلالةٌ على نبوة النبي ﷺ ، إذ أنَّ إخبار النبي ﷺ بقصة يوسف ، لم يكن عن مشاهدة منه لأحداثها ، فهو بينه وبين يوسف وإخوته أزمنة مديدة ، ولم يكن ﷺ يقرأ ويكتب حتى يعرف شيئاً عن قصة يوسف من كتب أهل الكتاب ، ولم يكن بين قومٍ لهم علم بأحوال الأمم السابقة ، فمن أين له أن يُحدِّث بتفاصيل تلك القصة ؟! والجواب : أنه الوحي من الله تبارك وتعالى ، كما قال سبحانه في هذه الآية : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ ﴾ أي عزموا على إلقاء يوسف في البئر ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ بيوسف عليه السلام بإلقائه والخلاص منه ، ويمكرون كذلك بيعقوب عليه السلام حين جاؤوه بقميص يوسف عليه السلام ملطخاً بالدم وقالوا : أكله الذئب !! .

أكثر الناس على غير الإيمان والجادّة :

وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فعلى الرغم من أن إخباره ﷺ بتلك القصص التي هي من الغيب الذي لا يتأتى إلا بوحي من الله ، وهذا دليلٌ على نبوته ؛ فأكثر الناس أعرضوا عن الإيمان بالنبي ﷺ ، واتباع هديه ، وهذا فيه من الفوائد أن اجتماع الكثيرين من الناس على أمرٍ ما ، لا يدل على صواب ما اجتمعوا عليه ، وإنما الصواب ما دلَّ دليل الشرع

على أنه الصواب ، فهذا كلام الله يقول : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .. وبعد آية فقط هنا في سورة يوسف يقول جل وعلا : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ويقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] ، ويقول كذلك سبحانه : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[2] ، ويقول عَجَّلَ : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[3] وغير ذلك كثير من الآيات ، فالحق لا يعرف بكثرة أتباعه ، وإنما بالدليل الشرعي الذي يدل على أنه الحق والصواب .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وما تسألهم على هذا القرآن الذي تتلوه عليهم ، وعلى هذا الإيمان الذي تدعوهم إليه ، من مالٍ يعطونك إياه كما يفعلون مع أحبارهم ، ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ هذا القرآن وما تحدثهم به من القصص والأحاديث ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهو ذكرٌ لأهل الأرض جميعاً ، وليس خاصاً بمن سمعوه من النبي ﷺ وحدهم .

وفي هذه الآية حثٌ على الإخلاص وترغيبٌ فيه ، وأن لا يبتغي الداعية بدعوته أجراً أو متاعاً من الدنيا الفانية ، بل يبتغي الأجر كل الأجر من الله تبارك وتعالى .

---

(١) الأنعام : ١١٦ .

(٢) سبأ : ١٣ .

(٣) هود : ٤٠ .

وقال جل وعلا : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ ﴾ هذا استفهام للإنكار ، والمعنى : هل عند أولئك الذين رفضوا الإيمان بالله ورسوله ، وأبوا إلا الشرك والكفر ، هل عندهم أمانٌ من عذاب الله تعالى بالصواعق ، والقوارع ، والزلازل ، والفيضانات ، والحروب ، والأمراض ، والكوارث ، وغيرها ؟! ، وهل عندهم أمانٌ أن لا تأتيهم الساعة بغتةً وهم على كفرهم وباطلهم ؟! .

وفي الآية تخويفٌ من الله لعباده لأجل أن يؤمنوا به سبحانه ، ويتبعوا شرعه ودينه ، وهدي رسوله ﷺ ، قبل أن تفجأهم الساعة ، أو يأتيهم عذابٌ من ربهم جل وعلا .

الدعوة على بصيرة هي طريق النبي ﷺ وأتباعه :

وقال جل وعلا : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : قل يا محمد للمشركين ولغيرهم : هذه الدعوة إلى الله ودينه التي أدعوكم إليها ، هي طريقتي وسنتي ، ثم بيَّن هذه الدعوة وهذا السبيل بقوله : ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ على حجةٍ واضحةٍ ، وعلى معرفةٍ يتبين بها الحق من الباطل ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ فحقٌ على أتباع الرسول ﷺ أن يكون دعاةً إلى الله تعالى على بصيرة كما كان نبيُّهم ﷺ ، ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ تنزيهٌ لله جل وعلا ، ومدحٌ وثناءٌ عليه سبحانه ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين أشركوا مع الله غيره ، واتخذوا من دونه أنداداً .

وفي الآية حثٌ على الدعوة إلى الله تعالى بالعلم والبصيرة ، وبيان أن هـذه سبيل أتباع الرسول ﷺ ، وسبيل الرسول ﷺ من قبلهم .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فالرسل لم تكن من الملائكة كما طلب أهـل الشرك أن يكون الرسول ملكاً ، ولم تكن من النساء ؛ ولم تكن من الجن ، بـل من الإنس الرجال دون غيرهم .

التأمل والاعتبار مطلبٌ شرعيٌ :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ ﴾ أفلم يسر المشركون في الأرض فينظروا أحوال الأمم التي كذبت رسلها من قبلهم ، وكيف أهلكهم ربهم جل وعلا ، فيعتبروا بذلك ويؤمنوا ، ويخـافوا أن يكـون مصيرهم كمصير من سبقهم من الهلاك والعذاب والاستئصال .

﴿ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وهذا تذكير لهـم بـأن الآخرة خيرٌ وأبقى لأهل التقوى والإيمان ، وأن صاحب العقـل الـسليم يقـدم الآخرة الباقية على الدنيا الفانية ، ويقدم طاعة الله على طاعة شيطانه وهواه .

وقال سـبحانه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، قوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ من النصر بعقوبة قومهم المكذبين لهم ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟

جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾ وظنت الرسل أن أتباعهم كذبوهم ؛ جاءهم نصر الله عند ذلك ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ ﴾ من أهل الإيمان ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ .

وفي الآية بيانٌ لما تقدم ذكره من أن الشدة يعقبها التيسير ، وأن الضيق يأتي بعده الفرج ، وأنه كلما اشتدت الأمور كان ذلك إيذاناً بالفرج والمخرج .

وقال سبحانه : ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ قوله جل وعلا : ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ ﴾ أي: قصص الرسل ومن بعثوا إليهم من أقوامهم ، وكذلك في قصص يوسف إخوته وأبيه وما حصل معهم مما تقدم بيانه في تلك السورة ﴿ عِبۡرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾ عبرةٌ ؛ فكرةٌ ، وبصيرةٌ مُخَلِّصَةٌ من الجهل والحيرة ، وأُولو الألباب : أصحاب العقول السليمة ، الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم ودنياهم .

وإنما كان هذا القصص عبرةً لما اشتمل عليه من الأخبار الصادقة المطابقة للواقع ، مع بُعد الفترة الزمنية بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قصَّ علينا قصصهم ، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه ، مع كونه لم يطلع على قصصهم ولا اتصل بأحبارهم ؛ ولهذا قال سبحانه : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ ﴾ هذا القصص ، وهذا القرآن الذي فيه هذا القصص ؛ ما كان حديثاً يفترى ﴿ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ من الكتب المنزلة كالزبور ، والإنجيل ، والتوراة ﴿ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ فهذا القرآن ، وهذا الذكر ، هدايةٌ ورحمةٌ ونورٌ وشفاءٌ لأهل الإيمان دون غيرهم .

كانت هذه سورة يوسف ، وفيها قصة نبي الله يوسف عليه السلام ، وفيها من العبر والعظات الشيء الكثير ، وكلما تأمل فيها المسلم ، وكلما قرأها المسلم ، سيجد فيها عبراً ، وسيجد فيها انشراح صدر ؛ كما كان النبي ﷺ يُذَكِّرنا ، وكما كان الصحابة والسلف الصالح يقرءون هذه القصة على المحزون والمكروب والمهموم ، وإذا به تنفرج نفسه ، وينشرح صدره ، ويستريح خاطره .

أسأل الله أن أكون وإياك أخي القاريء من أهل الإيمان الذين ينتفعون بكلام ربهم الرحمن جل وعلا .. آمين .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يشرح صدورنا ، وأن يفرج كروبنا ،

وأن يبدل همومنا عزاً وفرجاً وسعادة ،

إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير سبحانه وتعالى .

فهرس

مقدمة ٥

تمهيد ٧

سبب نزول السورة.............................. ٨

بدايات السورة................................ ٩

أحسن القصص ١٠

يوسف عليه السلام والرؤيا ١٠

كل ذي نعمة محسود ١١

غيرة إخوة يوسف عليه السلام ومكرهم ١٣

مؤامرة للخلاص من يوسف عليه السلام ١٥

خلاص يوسف عليه السلام من البئر ١٨

يوسف عليه السلام في بيت العزيز ٢٠

محنة الشهوة والإغراء ٢١

براءة يوسف عليه السلام من الهم بالسوء.......... ٢٤

مكر النساء وكيدهن ٢٧

يوسف عليه السلام في محنة السجن ٣٣

دعوة يوسف عليه السلام إلى الله في السجن ٣٥

يوسف عليه السلام وتعبير الرؤيا ٣٧
رؤيا الملك وتعبيرها ٤٠
الإعلان ببراءَة يوسف عليه السلام وخروجه من السجن ٤٢
العزُّ والتمكين بعد المحنة والابتلاء ٤٣
لقاء يوسف عليه السلام إخوته بعد طول فراق ٤٤
أخذ الأسباب للوقاية من العين ٤٧
حيلة يوسف عليه السلام لضم أخيه إليه ٤٨
شدة البلاء تعقبه سرعة الفرج ٥١
مصارحة يوسف عليه السلام لإخوته بما فعلوه معه ٥٣
عفو ومسامحة يوسف عليه السلام ٥٤
لقاءُ يوسف لأبويه وتحقق الرؤيا ٥٦
قصة يوسف عليه السلام من أدلة نبوة نبينا محمد ﷺ ٥٨
أكثر الناس على غير الإيمان والجادَّة ٥٨
الدعوة على بصيرة هي طريق النبي ﷺ وأتباعه ٦٠
التأمل والاعتبار مطلبٌ شرعي ٦١
فهرس ٦٤